شعر الحداثة وتجربة التصوف

د.عمارة بوجمعة
جامعة سيدي بلعباس

الملخص:
سمحت تجربة التصوف للقصيدة العربية الحديثة بتحقيق أبعاد فنية جديدة تقوم على الرمز وطاقة الخيال، مما جعل الشعر تمثيلا لطاقة الإنسان في التعبير عن حياته الروحية والوجدانية. ذلك أن عالم الشعر شبيه بعالم التصوف في الرغبة في فهم أسرار الطبيعة و الكون وإدراك عالم الأشياء الخفي. وقد عمقت العلاقة بين القصيدة الحديثة والتصوف حالة من الغموض مما جعل القارئ يجد صعوبة في فهم أبعاد اللغة الشعرية ودلالاتها، ويفشل في التواصل مع بلاغة اللغة الصوفية ورموزها المختلفة.
الكلمات المفتاحية: الصوفية، الشعر. الحداثة ، الاستعارة، الحياة الروحية، الرموز. الحياة الروحية

Résumé
L'expérience du soufisme a permis au poème arabe moderne d'atteindre de nouvelles dimensions artistiques fondées sur le symbolisme et l'imagination, faisant de la poésie une représentation de l'énergie humaine dans l'expression de sa vie spirituelle et émotionnelle. Le monde de la poésie ressemble au monde du mysticisme dans le désir de comprendre les secrets de la nature et de l'univers et la réalisation du monde des choses cachées. La relation entre le poème moderne et le mysticisme a approfondi un état d'ambiguïté, ce qui rend difficile au lecteur de comprendre les dimensions du langage poétique et ses implications et ne parvient pas à communiquer avec l'éloquence de la langue soufie et de ses divers symboles
Mots- clés. Soufisme. poésie. modernité, métaphore.vie spirituelle. symboles

تتميز التجربة الشعرية عند المتصوفة بالطابع الذاتي الاستبطاني للتجربة، فقد كان الشعر عند أعلام المتصوفة يتحدد في المنطقة التي يكون فيها مرادفا لتجربة التصوف بوصفها تجربة روحية، فعلى خلاف الشعر العربي التقليدي الذي كان يستمد دلالته من روح الجماعية والتعبير عن الموضوعات الخارجية، كانت التجربة الصوفية تصدر عن معاناة ذاتية مبدعة تعتمد التصوير المكثف والخيال الخلاق سعيا إلى معرفة اشراقية متجددة دائما وأبدا.)[1]وعلى هذا نهضت تجربة الشعر عند المتصوفة على نوع من التعامل الخاص مع اللغة، فعلى نقيض التجارب الشعرية العربية التقليدية التي اعتمدت النزعة الوصفية في تجلية الموضوعات الشعرية، اتجه شعراء التصوف إلى تحميل اللغة أبعادا رمزية واشارية جديدة موغلة في التعمية والغموض، وهي أبعاد وجدت فيها التجربة الشعرية العربية في مطلع عصر النهضة مرجعا لتجاوز نمطية التعبير الشعري القديم وفتح أفق شعري جديد يتصل بذات المبدع وتجربته الوجدانية،وبهذا المعنى كان ثراء التجربة الصوفية في جوانبها الإبداعية والسلوكية معينا على ربط الشعر بالتجربة والتحليق في أبعاد متافيزيقية نقلت الشاعر إلى حالة من الاستبطان والتأمل في ظواهر الطبيعة والوجود.

لقد ترافق الوعي بالتجربة الصوفية بتلك المبادئ الفنية والفكرية التي قام عليها الاتجاه الرومانسي، لاسيما التأكيد على فاعلية الخيال في بناء اللغة وتشكيل عناصرها الفنية والجمالية، فقد أخذت ملامح النزعة الصوفية تنامي بصورة أوضح عند الشعراء الرومانسيين العرب في المهجر الذين اتجهوا إلى

الإعلاء من منزلة الذات في التعبير عن مكانها النفسية والروحية، وبهذا (بدا غروب الشاعر الذي يتكلم بما يعرف وغروب الشعر المرتبط بالمؤسسات الرسمية، وظهر لأول مرة شعراء لم يعرفوا المدح ولا الرثاء ولا الاخوانيات ومختلف شعر المناسبات، ظهر الشاعر الذي يؤمن أنه راصد للأسرار كاشف عن الحقيقة)[2]. وبهذا وجد الشاعر الرومانسي في التجربة الصوفية ما يمنح التجربة الشعرية الرومانسية روح المغامرة اللغوية ورغبة الذهاب إلى المناطق الأكثر قصية في التجربة.

تعمقت هذه الصلة بين التصوف والشعر في التجربة الشعرية العربية الحديثة وقامت على الأساس الفني المشترك بين التجربتين، ذلك أن الشاعر يقف في سياق رؤيته الشعرية في مناخ شبيه بالذي يقف فيه المتصوف. فكلاهما مأخوذ في سياق تجربته برغبة الانفلات من قيود الواقع والعادة، والتطلع إلى نوع من التسامي الذي تنخرط فيه التجربتان في اكتناه أسرار الكون والاتحاد بعالم الأشياء الخفي، كما أن التجربتين تلتقيان في البعد الإنساني الذي يجعل الإبداع تمثيلا لطاقات الإنسان الداخلية وتعبيرا عن ما يعتمل في أعماقه من أفكار ورؤى وما يشد صلاته العميقة بالوجود)[3].

وفي هذا المعنى تغدو التجربتان:(الصوفية والشعرية) طريقة ومسلك تتجاوز فيه الذات واقعها الوجودي الى عالم الغيب والدهشة ،(ثم إن ثمة علاقة قائمة بين الشعر في جوهره والمفهوم الإنساني العام للتصوف. فإذ كان التصوف يصدر عن تجربة روحية، تتطلع إلى التجاوز وترغب في الكشف عن الحقيقة ، فإن الشعر هو تعبير يختزل في العمق قلق الروح وتطلعها إلى التحرر والخلاص، مما يجعل التجربة الصوفية والتجربة الفنية تلتقيان في نسق متشابه، فهما لا ينتميان لنسقين مختلفين تماما، ففي كليهما انخراط في الوعي الذاتي الذي لا يفتأ أخذا في التمدد والنمو والاتساق ن الشعر بهذا المفهوم هو تجربة وجدانية تسعى فيها الذات إلى التوحد مع عناصر الطبيعة والوجود)[4].

وفي ضوء هذا الفهم لطبيعة الشعر تكون التجربة الشعرية حالة صوفية تنجذب إلى المتعالي، وتنخرط في معاناة البحث عن الحقيقة والمطلق. فمهمة الشعر في إطار هذه الرؤية ترتبط بالبحث عن المجهول بما توفره اللغة من طاقة على توليد الصيغ والإشارات التي تهيئ النص لامتلاك شعرية تستمد حضورها من تلك المغامرة النفسية والوجداتية والفكرية التي تجعل الشعر في حالة دائمة من التوقد والتوثب والحركة ، وتجعل اللغة أداة تلتحم بالتجربة ويتحقق بها الكشف والرؤية.

وتحت سلطة هذا التحول الفني والمعرفي أصبح الإبداع في حركة الشعر العربي المعاصر، ينهض ضمن طرح جديد في النظر إلى الشعر. فلم يعد الشعر ترديدا شكليا للصيغ القديمة ،وإنما صار رؤية حدسية وطاقة من الكشف الغامض في صورتها الجوهرية. إن الشعر من هذه الناحية هو طاقة رمزية تجعله يتنزل في إيقاع التجربة الصوفية بأبعادها الفنية والروحية. ذلك أن الشاعر (ليس أقل حظا من الصوفي في استخدام الرموز اللغوية بكل محمولاتها وشحناتها وكثافتها للإيحاء بجملة الأفكار التي تراوده والمعاني التي يهجس بها والقيم التعبيرية والوجدانية التي يتفجر بها المعنى الباطني، فاللغة هي إذن المؤشر على الظاهر والمستتر والممكن والمحتمل والمعلوم والمجهول)[5]. إن اللغة قادرة من هذه الناحية على النفاذ في جوهر الأشياء وتغييرها.

لقد شكلت اللغة الصوفية بما انطوت عليه من طاقة روحية وفاعلية رمزية وقوة حدسية أداة للبحث عن الجوهر المنفلت خارج القيود والأطر التي تحد من حرية الفكر والروح وسمحت للشعر بالانفتاح على عمق التجربة الإنسانية، مما سمح للشاعر العربي المعاصر من التزود من المبادئ الشعرية التي اعتمدها الخطاب الصوفي، ومنها مجاوزة السياق العادي في اللغة باستخدام طاقة اللغة الرامزة المفتوحة وجعل الشعر تجربة كشفية ونوعا من المعرفة القائمة على الاكتشاف والإدراك الذوقي والشعوري في السمو بالتجربة والنفس إلى آفاق فنية أرحب. فكان من نتيجة هذا التواصل الفني أن اعتمدت الشعرية العربية الحديثة في تحرير رؤيتها لمفهوم الشعر على الإرث الصوفي في تعميقا لطابع الذاتي للشعر، والانتقال بالقصيدة من عالم الرؤية والوضوح والتحديد إلى عالم الرؤيا والغموض واللاتحديد)[6].

تمكنت التجربة الشعرية الحديثة عبر هذا التجاوب المعرفي مع تجربة التصوف من توسيع طاقة النص الشعري باعتماد تقنيات جديدة في الكتابة الشعرية، تستمد فاعليتها الفنية والجمالية من طاقة التشفير اللغوي في الخطاب الصوفي (الأمر الذي يجبر القارئ على المتابعة المضنية لعمليات التوليد اللغوي والفني، عن طريق لعبة الفروض الذهنية في تفسير دلالتها، طبقا لما يترتب

على كل احتمال من العثور على درجة أعلى من معقولية النص وتماسكه)[7]. إن هذا يعني أن اعتماد الشعر على فاعلية المجاز وطاقة الإشارة سمحت له بتحقيق مسافة جديدة من الإدراك والاختلاف والتوتر.

لقد شكلت التجربة الصوفية فضاء مغريا للشعر العربي الحديث الذي وجد في الكتابة الصوفية طاقة رمزية، هي حالة من المغامرة في اتجاه عوالم فنية أكثر رحابة وعمقا. وهي في الوقت نفسه صيغة مجازية، حملها الصوفي صراعاته وهمومه، سعيا إلى المنطلق الذي ينتفي عنده الصراع والحيرة والقلق.(فقد رأيت الصوفية في الكتابة الوسيلة الأولى الإفصاح عن أسرارها، ورأت في الشعرية وسيلة للمعرفة...وفي هذا استعادة العلاقة الوثيقة بين الشعر والغيب. لقد استخدم الصوفيون في كلامهم عن اللغة والوجود والإنسان والفن : الوزن والقافية. والقارئ يتذوق تجاربهم ويستشف أبعادها عبر فنيتها. وهي مستعصية على القارئ الذي يدخل إليها معتمدا على ظاهرها اللفظي ، بعبارة ثانية يتعذر الدخول إلى عالم التجربة الصوفية عن طريق عباراتها. فالإشارة لا العبارة هي المدخل الرئيس في اللغة الصوفية)[8].

إن التجربة الصوفية بهذا المعنى، هي تجربة في الإبداع الذي ينحاز إلى التواصل مع المطلق بلغة تتجاوز سياق الاستعمال المتداول الواضح إلى الاستعارة العميقة، والإشارة الغامضة المفتوحة على الاختلاف واللاتحديد. (ولقد عبر المتصوفة باللغة والتي يعاد بفضلها إنتاج أو تمثيل أو نمذجة الواقع والحدث أيا كان مصدره وتوسعوا في أشكال التعبير التي سمحت بها اللغة، وشكلوا نسقا خطابيا مختلف المكونات والظواهر النصية، من شعر وقصص وأدعية ومناجيات وحكم وأخبار، تنتظم ضمن مجموعة من القوانين التي تحكم العلاقات والتفاعلات في صلاتها المختلفة قصد بلوغ هدف معين، هو التعبير عن تجاربهم في الاتصال بالله. وبهذا كانت الكتابة وسيلة للطلع خلف الظواهر وحاملا طاقة التجربة الروحية عن المتصوفة.

وضمن هذه الرؤية، كانت الكتابة الصوفية، بمكوناتها الرمزية والفنية كتابة تنتمي لهاجس إبداعي عميق، يجعل من التجربة الصوفية ككل حالة إبداع وحالة حياة كاملة في الوقت نفسه، تتحقق بالكتابة كفعل وجودي يخلق لغته ويعيشها في نفس اللحظة وينتج الحياة أثناء حركته في اللغة. وهنا تتجلى فاعلية الكتابة الصوفية بوصفها تجربة لتعددية الأحوال والأشكال . من هنا يمكن القول أن تعدد أشكال الكتابة عند الصوفية يرجع إلى تعدد أحوالهم ومقاماتهم، أي أن الكتابة تتشكل وفق طبيعة الأحوال والتجارب. وهي ضمن هذا السياق تضيء بحسب أدونيس قضايا ثلاث ترتبط بالكتابة إجمالا والتي كانت وراء انعطاف الكتابة الشعرية العربية. وترتبط هذه العلائق بالتجربة والواقع والحقيقة. فالشعر في ضوء التجربة الشعرية هو انفعال وفعل. فهو حركة الكيان الإنساني شعورا وفكرا في فهم الأشياء وفي العلاقة معها. وهو، بهذا المعنى لا يتحدد من خلال الواقع والعالم الخارجي، وإنما قيمته تستمد من علاقته بالحياة والوجود. ومن هنا تكون الحقيقة التي ينشدها الشعر هي الحقيقة الذاتية .فاتجاه الصوفية إلى " الباطن" بوصفه الوجود الحقيقي، قادهم إلى فهم جديد يتمثل في بروز الجانب الذاتي في الإنسان ومحاولة إيجاد حلول لا يمكن أن تنسجم مع النقل أو العقل، وإنما تنسجم مع القلب معتمدة في ذلك على الذوق الذي يمثل الكشف المباشر الذي يتم عبر حال تلبس الصوفي فتتبدل صفاته وتقوده في حركة تجاوز الشريعة غلى الحقيقة، متجه نحو الكشف عن جوهر العالم والفناء فيه)[9].

وجد الشعر العربي الحديث وهو يتطلع إلى آفاق إبداعية جديدة في المعرفية الصوفية ما يعضد مفهومه للشعر، و يستجيب لهاجس الإبداع وطموحه في البحث عن أفق لكتابة جديدة، تتجاوز الأطر الفنية التقليدية إلى صيغ جمالية مفتوحة على إمكانيات الشعر وطاقته على الاكتشاف والبحث. وعلى هذا الأساس تلبست التجربة الشعرية الحديثة بالمعرفة الصوفية بوصفها حالة دائمة التغير والتجدد. فالكتابة بهذه الرؤية تجدد الأشياء من حيث أنها تجدد صورتها وعلاقاتها وتجدد اللغة من

حيث إنها تنشئ علاقات جديدة بين الكلمة والكلمة وبين الكلمات والأشياء .إن الشكل الشعري بهذا المعنى هو قرين الحالة والتجربة. مما يجعل الشعر مغامرة فنية دائمة الحركة والتجدد.

وضمن سياق هذا الاستلهام الفني، يمكن القول أن التفاعل العميق الذي دشنته التجربة الشعرية مع تجربة التصوف لا ينهض على مجرد التعالق الشكلي على مستوى اللغة، بل إن هذه العلاقة تتجاوز ذلك إلى مستوى التخييل ومستوى الرؤية الشعرية القائمة على فاعلية التجربة الحدسية، من حيث إنها تجربة تتجاوز العقلنة والتجريد. وفي هذا المعنى، يكف الشعر أن يكون مجرد محاكاة شكلية فارغة، لأنه يصدر عن حساسية ميتافيزيقية تحس الأشياء إحساسا كشفيا وفقا لجوهرها وصميمها الذين لا يدركهما العقل والمنطق، بل يدركهما الخيال والحلم)[10] إن المعرفة الشعرية هنا، هي معرفة حدسية تقع خارج الإرادة والعقل. ولعل هذا البعد الفني في استقصاء اللغة الشعرية، هو ما يجعل الكتابة الشعرية صعبة على التلقي والفهم. فقارئ النص الحديث يجد صعوبة جمة في استنطاق مغاليق النص الشعري واستكشاف دلالته، لأن المعنى الشعري في الخطاب الشعري الحداثي لم يعد قائما في عبارة الواضحة والقريبة أو في الفهم المباشر والسطحي للحياة والواقع ، وإنما أصبح إرادة إبداعية تتشكل بفاعلية المجاز اللغوي وطاقة اللغة الشعرية على الترميز والإيحاء.

عملت هذه النظرة المغايرة في جعل التجربة الشعرية الحديثة قادرة على اختراق الشكل الإيقاعي التقليدي لتؤسس شكلها الحداثي الطافح بالصدق، لأن الشاعر المعاصر لم يعد في ضوء تجربته الجديدة يحس بالكلمة على أنها مجرد لفظ صوتي له دلالة، وإنما صارت الكلمات تجسيدا حيا للوجود، ومن هنا اتحدت اللغة والوجود في نظر الشاعر، وهذا التلاحم بين لغة الشعر والوجود هو إذن ما يستنفذ جهد الشاعر المعاصر ويشكل القدر الأكبر من معاناة اللغة[11]، فعبر فاعلية اللغة الشعرية وطاقتها التعبيرية والرمزية يحقق الشعر روح الابتكار والاختلاف وتحقق العلاقات اللغوية ثراءها وغناها من خلال تعدد دلالاتها وتنوع إمكانياتها على العبير عن المشاعر والظواهر والأشياء.

المراجع:

[1] سحرسامي،شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،2005.ص61.

[2] خالدة سعيد، حركية الإبداع : دراسات في الأدب العربي الحديث ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ط2-1986،ص.30/29.

[3] محمد بنعمارة، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، شركة النشر والتوزيع المدارس الدار البيضاء المغرب ط1-2001.ص140.

[4] سحر سامي، شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية ص58.

[5] عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل، مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة دار الوصال، الجزائر ط1-1994.ص71.

[6] عبد الواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط1-1999.ص79.

[7] صلاح فضل أساليب الشعرية المعاصرة،دار الآداب بيروت ط1-1995. ص192.

[8] أدونيس، الصوفية والسوريالية، دار الساقي بيروت ط1-1992.ص23/22.

[9] المرجع السابق ص186

[10] أدونيس، زمن الشعر، دار الساقي بيروت لبنان،ط6-2005.ص71.

[11] -عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة بيروت، ط3-1981. ص 180.